الخادمـــة

للأستاذ ابراهيم عبد القادر المازنى

وقفت نعيمة أمام المرآة تنظر فيها ، وتتأمل نفسها بادية فى صقالها ، وفى يدها منفضة من الريش الناعم ، ثم صوبت عينها إلى أدوات الزينة المرصوصة . . لقد صارت الآن خادمة وصار عملها أن ترتب هذه الغرف الوثيرة الأثاث . . فلشد ما انتقلت بها الأحوال !! منذ سنتين اثنتين ، لا أكثر ، كانت تنام على مثل هذا السرير . . وكان لها خدم ، وحولها حشم . . وكانت قلما تقوم قبل الضحى . . كانت تفتح عينيها ، وتتمطى ، وتتثاءب ، وتنظر إلى الساعة الدقيقة على معصمها فتعلم أن الشمس قد ارتفعت ؛ وأنه آن لها أن تنهض . وتمد يدها إلى الزر ، وتضغط فتجىء الخادمة - بهية - وتسألها « نعم ياستى ؟ » فتقول لها أعدى الحمام ، فتفعل وتجيئها قبل ذلك بالشاى وتنحى الستاير ... وتهم بهية بالخروج فتناديها وهى تتقلب على السرير من الكسل ، « والنبى يا بهية دوسى لى على كتفى ... كان هذا منذ سنتين . . كأنه حلم ! . . زالت النعمة كلها وأفلس أبوها ، إفلاساً بتدليس » . . وانتحر ... وتركها تملك قوت يومها . . استطاعت أن تحيا ، على نحو ما ، بضعة شهور ، ثم لم يبق بد من ابتغاء الوسيلة إلى القوت . . وهذا أول بيت غريب دخلته لتعمل فيه

وانتقلت نعيمة إلى السرير ، وتناولت الوسائد الصغيرة المبعثرة عليه ، لتصلحها وترتبها ، فأوحى إليها منظر السرير الواطىء اللين الشعور بالحاجة إلى التمطى . . أن تستلقى عليه وتمد رجليها وتفتح ذراعيها وتتثاءب وتقول « آ . . الخ » . . . ولم لا ؟ . . إن هذا الجناح من البيت ليس فيه أحد . . وقد خرج سيدها منذ ساعة وهى الموكلة بهذه الناحية . . وليس هناك من تخشى أن يفاجئها سوى « حسن » . . ما أثقله !! هو رئيس الخدم . يدخل فى رحمته من يشاء ويخرج منها من يشاء . لم يكن فى بيتها هى أيام النعمة رئيس للخدم . كانوا جميعاً خداماً ، وكانت هى الرئيسة دون سواها . . أمها ميتة ، وأبوها يدع لها هذه الأمور . . ولكن جميل بك يؤثر نظاماً غير هذا . . ولا سيما بعد أن فسد ما بينه وبين زوجته فخرجت من البيت

وجلست على السرير ، وهى تحدث نفسها بأنها لاشك تستطيع أن تسمع وقع قدمى حسن ، إذا خطر له أن يجىء إلى هذه الناحية . فانه ضخم غليظ ثقيل . . ومشيه دبدبة . ومالت على السرير ، وأراحت جسمها البض على فراشه اللين ، وحدثت نفسها ، وهى تحس أن جسمها يسترخى ، أنها خليقة أن تحمد الله على التوفيق إلى العمل ، فى بيت كهذا ، بعد الذى نزل بها ، وإنها إذا كانت لاتنام على هذا السرير فان من بواعث سرورها أن يكون أمره موكولا إليها ، وأن يكون فى وسعها أن تروح وتجىء فى هذا البيت الحسن ، وأن تكون فى خدمة

نحتاج إلى مؤتمرات تبيد الخوف إلا الخوف من الذل والعار ، وتبيد السيطرة إلا احتراماً لخلق أو قانون

***

ما أصعب هذه المؤتمرات وما أشقها وما أحوجنا إليها ! أنها تتكون من رجال من أمة واحدة ، ولكنها أصعب من مؤتمر مثلت فيه كل الدول ، لأنها مؤتمرات لا تلغى قانوناً موضوعاً ، ولكنها تلغى أخلاقاً موروثة ، وتقاليد سمرها الزمان ، وتحطم أوتاداً سهر عليها الحاكم الظالم المستبد حتى صلبت الأرض عليها

***

لست أومن بنظرية العمال العاطلين حتى يصعب على الأجنبى والمصرى الحصول على العيش الرغد على السواء . فأما إن سهل تحصيل العيش على الأجنبى وصعب على المصرى فليست النظرية - إذن - نظرية عمال عاطلين ، ولكنها نظرية فقر فى الأخلاق ، وجهل بفن الحياة

***

فهل لنا وقد نجحنا فى مؤتمر الامتيازات الأجنبية أن نوجه همتنا لمعالجة أختها الامتيازات التى هى من نوع آخر علنا ننجح أيضاً ؟

أحمد أمين

هذا السيد الكريم الوديع المذنب . . الحمد لله على كل حال ، .

ولو أن سيدها رآها ، وهى راقدة على سريره ، وأخذت عينه هذا المنظر الفاتن ، لكان الأرجح أن يقف مفتوح الفم من دهشة الاعجاب وسحره ؛ وسمره فى مكانه ، هذا الخط المتموج الذى بدأ من فخذها الأملس ، ويرتقى ويستدير مع ردفها ، ثم ينحدر فى لين مع خصرها ، ثم يعود فيرتفع حتى يبلغ الحلمة الحوة الناشزة من ثديها الراسخ . . وكان شعرها الذهبى مرسلا ، كأنه أمواج من النار على الوسادة . وأسندت نعيمة خدها الأسيل على الحرير الناعم ، وتنهدت ، وخطر لها أن حظها على كل حال خير مما كان يمكن أن يكون . . كل شىء هنا حسن ، الاحسن ، ... فانه دميم غليظ ، وثقيل الدم بارده ، وفظ شرس ... ونظرته أعوذ بالله منها ! ... إنها لتتعلق بصدرها ، فتحس أنها نفذت إلى مانحت ثيابها ، فكأنها واقفة أمامه عارية لا كاسية ! ... وما أكثر ما يلمس كتفها ، وهو يحدثها ، أو يدعوها إلى الوقوف ، . . فتسرى الرعدة فى بدنها . . وأصابعه ؟ . . ياحفيظ ! . . قصيرة ، غليظة ، مبططة !

وأغفت نعيمة ، وهى تفكر فى هذا وما اليه من مظاهر حياتها الجديدة ، ثم انتفضت قائمة وفى يقينها أن بعضهم ينظر إليها . ولكنها لم تر فى الغرفة أحدا ، فلا شك أنها كانت تحلم أو لعل هذا ضميرها يزجرها عن الاجتراء والتسحب بهذه الطريقة

ووقفت نعيمة وأجالت عينها فيما حولها . فلمحت زجاجة عطر صغيرة ، فقد كانت فيما مضى تتخذ مثلها ، بل كان هذا هو العطر المفضل عندها . واضطربت يدها ، وهى تتناول الزجاجة . وترفع عنها الغطاء . . وأدنتها من أنفها الجميل ، لتشم ، وتنعم بالأرج المفتر . . وإذا كان لا تسعها الآن أن تتعطر ، فلا أقل من متعة الأنف . . وما البأس . . وأحست وهى تنشق العطر الخفيف بالحنين إلى الأيام السالفة . . وتفلتت الزجاجة من بين أصابعها فارتفعت كفها الرخصة ، بسرعة ، الى فمها ، لتكتم صرخة جزع حين رأت الزجاجة تهوى على السجادة ، وقد حمتها السجادة ان تتكسر ولكن مافيها أريق كله ، وملأ الغرفة بأرجه ، فصار المكان كأنه بستان زهر . وصوبت عينها إلى السجادة فرأت العطر قد رسم دائرة كبيرة داكنة على النقوش الفارسية الجميلة ، فانحنت والتقطت الزجاجة الفارغة ، وردتها إلى مكانها . وسمعت فى هذه اللحظة صوتا فريعت ودارت على عقبها ، فاذا حسن أمامها يثبرها النظر كأنما يريد أن يأكلها بعينيه ، وكان قد دخل كالقطة ، وساعده لين السجادة السميكة على إخفات صوت قدميه الغليظتين

وكان حسن ينهج كأنما كان يجرى . وكانت أنفاسه تروح وتجىء بسرعة ، وعيناه كالجمرتين ، ونعيمة ترى هيئته ، وترعد كأنها فى ثلاجة ، وقد أيقنت أنها فقدت عملها . . وهل يبقيها حسن وقد رأى ما صنعت ؟ ؟ . . ربما . . فما صنعت شيئا فى الحقيقة سوى أن زجاجة عطر سقطت من بين أصابعها ؛ ولكن الرجل فيه جفوة وغطرسة ، وهو قاس ، وقد أطغاه أن سيده ترك له أمر الخدم . . فهل يطردها . . أم تراه سيترفق بها ويعفو عنها ؟ . .

ولم تمض فى تفكيرها ، فقد مد حسن يديه اليها ، بعنة ، وتناول كتفيها ـ أو على الأصح ثوبها على كتفيها ـ وهزها وقال لها « سيكون هذا آخر لعبك هنا »

فتوسلت اليه ، وأقبلت عليه تستعطفه ، وتقول له إنها محتاجة إلى البقاء ، وأين تذهب إذا طردها ؟ . .

فقال بجفوة « ثريقين زجاجة ثمنها ثمانون قرشاً وتظنين أن فى وسعك أن تبقى ؟ »

فأيقنت نعيمة أن هذا آخر عهدها بالبيت الجميل ، والسيد الوديع الظريف ، وصار صدرها يعلو ويهبط .

ولم تفت حسن حركة صدرها المغرية ، فدنا منها وقال : « ثم إنى رأيتك راقدة فوق هذا السرير أيضاً »

فكادت نعيمة تسقط على الأرض ، وأحست أن رجليها تخذلانها . . ستفقد الآن عملها على التحقيق !! ومن ذا الذى يستخدم مثلها وهى حديثة عهد بالخدمة ؟ . وكانت يدا حسن لا تزالان على كتفيها فشد بهما على جسمها ، حتى لقد أحست نعيمة أن أصابعه انغرزت فى لحمها ، وشعرت بأنفاسه الحارة على وجهها وسمعته يقول « إذا أردت البقاء فليس هناك إلا طريقة واحدة »

وكانت نعيمة تعرف أن له أن يخرج الخدم ، فقالت وهى ذاهلة « كيف ؟ ما ذا تعنى ؟ »

وكانت تعلم ما ذا يعنى ، وتقرأه فى عينيه ، ولكنها كانت تؤثر الطرد والجوع على هذا . . كلا . . أبداً

فقال « إنك تعرفين ما أعنى . . لقد رقدت على هذا السرير مرة . . ارقدى عليه مرة أخرى »

ففزعت وإن كانت تعلم مراده ، وصاحت به « أبداً . . مستحيل »

ولكن حسن حملها كالدجاجة بين ذراعيه ، وألقاها على السرير ، وركع أمامها ، وأهوى بشفتيه الغليظتين على غلالتى شفتيها الرقيقتين ، وكانت يداه قاسيتين ، وكانتا تجرحان جسمها الغض ، وهى تحاول أن تتفلت منه ، وهو يشد عليها ؛ وهمت بأن تصرخ فوضع كفه على فمها ، وأخرسها ، ثم تناول ثوبها عند صدرها وجذبه فتمزق وتعرى صدرها فأكب عليها كالمجنون ، فلم تعد تطيق الصبر ، وفضلت أن تخسر عملها ، وأن تتضور وتتسول فى الطريق ، وأطلقتها صيحة مجلجلة خليقة أن تجمع عليهما كل من فى البيت فانتفض حسن قائماً وصاح بها بدوره « إنك مطرودة . أخرجى »

وشرع يخرج من الغرفة بسرعة قبل أن يجىء أحد على صوتها ، وإذا يسيده فى الباب .

وقال جميل بك « ما هذا » ؟

فقال حسن : « سيدى . . لقد رأيت نعيمة ترقد على هذا السرير ؛ ولم يكفها هذا ، بل أراقت زجاجة العطر . . »

ولكن جميل بك لم يكن يسمع شيئاً مما يقول حسن ، وإنما كان ينظر إلى نعيمة ، وهى واقفة فى هذا الثوب الذى صار هلاهيل ، وكانت تجمعه بيديها على صدرها لتستره . ولكنها لم تستطع أن تستر منه إلا قليلا . . والتفت جميل بك من نعيمة المطرقة المتقدة الوجه من الحياء إلى هذا الخادم النذل وصاح به : « أخرج فانك أنت المطرود . . »

فخرج وظهره مقوس

ثم التفت جميل بك إلى نعيمة وقال « إنى آسف لما حصل . لم أكن أتصور أن هذا الرجل الذى ائتمنته وحش . . . فلننسه . . »

فأدارت نعيمة وجهها إلى حيث أريقت الزجاجة وقالت لقد سقطت منى . . أريقت كلها ولم يبق فيها ولا قطرة »

فقال جميل بك ببساطة : « لا بأس . . لا بأس . . إذا كنت تستحقين عقاباً ، فقد لقيت فوق ما تستحق أية مجرمة صغيرة مثلك »

فابتسمت نعيمة ، وكانت لا تزال تحاول عبثاً أن تضم طرفى الثوب الممزق الذى أصارته يدا حسن كالعباءة لولا ضيقه ومشى جميل بك اليها وقال لها وهو يلبس الثوب « لم يعد هذا يصلح » وأشار إلى خزانة الثياب وقال « اخلعيه وخذى شيئاً من هنا بدلا منه » ولم يتركها تفعل ما أمرها به ، بل نزعه عنها فصارت أمامه فى ثيابها التحتية ، وهى كافية للستر ، ولكنها تظهر من الصدر والكتفين أكثر مما يكشف فى العادة . على أن جميل بك لم يكن ينظر إلى ما بدا له من جسمها ، بل إلى نفاسة الحرير الذى تلبسه تحت هذا الثوب الممزق ، فقد هز رأسه كالمتعجب ، ومضى إلى الخزانة فجاء منها بثوب من أثواب زوجته ألقاه اليها ومشى إلى النافذة . ولم يخف على نعيمة معنى النظرة فقد كانت صريحة فارتدت الثوب وقالت « هذه الثياب التحتية بقية من زمن النعمة وقد اشتريتها بنفسى »

فدار وقال « أيه ؟ »

فقالت ببساطة وابتسام « لقد كنت أستطيع أن أشترى ما أريد . . قبل الكارثة »

فذهب إلى السرير وقعد عليه وقال وهو مقطب : « ما اسمك ؟ اسمك كله »

فذكرته له فقال « اسمعى ... هل كان أبوك تاجراً فى الحمزاوى ... ؟ »

قالت « نعم »

قال « وماذا صنع الله به حتى احتجت إلى هذا ؟ »

قالت « مات ... انتحر ... »

فقال « امممم ! ... إنى آسف ... ، لم أكن أعرف هذا ... لو كنت أعرفه لما تكلمت بهذه اللهجة عنه »

فابتسمت ولم تستطع أن تقول شيئا . فقال وجذبها إليه

وأجلسها بجانبه على السرير : « اسمعى ... أن مثلك لا يجوز أن تعمل كخادمة »

فقالت باخلاص « إنى مسرورة ... وجودى هنا خير مما كنت أنتظر ... والآن اسمح لى أن أذهب وأغير الثوب وأرد هذا »

وأشارت إلى الثوب الذى كساها فقال « خله لك ... وغيره أيضا ... كل مافى الخزانة خذيه »

فقالت « سيدى ... لم أعتد أن آخذ شيئا من أحد »

قال وهو ينهض « أوه ... هذه مسألة يسهل أن نسويها فيما بعد ... »

وكانت هى قد نهضت أيضا فوقفا متقابلين . وقد يكون الأرج المتضوع فى الغرفة أو غيره هو الذى أدار رأسيهما فقد مال عليها فلم تبعد ، ولثم فمها . وكانت القبلة فى أول الأمر خفيفة — لمساً لا أكثر — ولكن الأيدى ارتفعت إلى الأكتاف فكان عناق طويل

وقال جميل بك « نعيمة ... إنك ساحرة ... كان دائما يخطر لى انك لست من الخدم ... ويخيل إلى أنك ستبقين هنا ... سيدة ... »

وكان قلب نعيمة يخفق بشدة فنأت عنه قليلا وهى تفكر فى معنى ما سمعت ثم قالت « ولكن الست ؟

قال « لاتقولى الست كأنك مازلت خادمة »

قالت وهى تضحك « زوجتك إذن ؟ »

قال « آه ... نسيت أن أخبرك أننا اتفقنا — أبوها وأنا — على فض الأشكال بالحسنى ... لامحاكم ولا شىء ... طلقتها اليوم وانتهى الأمر »

قالت : « الست آسفا ؟ »

قال « كلا ... كان هذا أحسن حل ... حياتنا مستحيلة ... لاوفاق »

ولأول مرة منذ سنتين شعرت نعيمة أن لها بيتا ، ونظرت إلى السرير — سريرها الآن ، أو هو سيصبح سريرها بعد العقد ... ثم ردت عينها إلى جميل بك فالتقت الشفاه مرة أخرى فى قبلة معسولة

ابراهيم عبد القادر المازنى

خاتمة الأساة الأندلسية

الصراع الأخـــير

بين الموريسكيين واسبانيا

للأستاذ محمد عبد الله عنان

(٢)

سرى إلى الموريسكيين يأس بالغ يذكيه السخط العميق فعولوا على الثورة مؤثرين الموت على ذلك الاستشهاد المعنوى الهائل . ونبتت فكرة الثورة أولا فى غرناطة حيث يقيم أعيان الموريسكيين ، وحيث كانت جمهرة كبيرة تحشد فى ضاحية « البيازين » ؛ وكان زعيم الفكرة ومثير ضرامها موريسكى يدعى فرج بن فرج ؛ وكان ابن فرج صباغاً بمهنته ، ؛ ولكنه حسبما تصفه الرواية القشتالية كان رجلا جريئاً وافر العزم والحماسة ، يضطرب بغضاً للنصارى ، ويتوق إلى الانتقام الذريع منهم ؛ ولا غرو فقد كان ينتسب إلى بنى سراج وهم من أشراف غرناطة وفرسانها الأنجاد أيام الدولة الاسلامية . وكان ابن فرج كثير التردد على أنحاء البشرات ، وثيق الصلة بمواطنيه ؛ فاتفق الزعماء على أن يتولى حشد قوة كبيرة منهم تزحف سراً إلى غرناطة وتجوز إليها من ضاحية البيازين ، ثم تفاجىء حامية الحمراء وتسحقها وتستولى على المدينة ، وحددوا للتنفيذ « يوم الخميس المقدس » من شهر ابريل سنة ١٥٦٨ إذ يشغل النصارى عندئذ باحتفالاتهم وصلواتهم ؛ ولكن أنباء هذا المشروع الخطير تسربت إلى السلطات منذ البداية فاتخذت التحوطات لدرئه ، وعززت حامية غرناطة ، وحاميات الثغور ، واضطر الموريسكيون أزاء هذه الأهبة أن يرجئوا مشروعهم إلى فرصة أخرى

واستمر الموريسكيون على عزمهم واهبتهم ، ووجهوا بعض الكتب خفية إلى أمراء الثغور فى المغرب يطلبون إليهم الغوث والعون ؛ فوقع كتاب منها فى يد حاكم غرناطة ؛ وتقول